القسم الأول

الفصل الأول
سيرة أبي القاسم الأفليلي

اسمه ونسبه
أسرته
ثقافته وشيوخه
عصره السياسي
تلامذته
الحياة الأدبية في قرطبة
آثاره

أبو القاسم الأفليلي

سيرته وثقافته

اسمه ونسبه

هو إبراهيم بن محمد بن زكريا بن مفرّج بن يحيى بن زياد بن عبدالله ابن خالد بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزُّهري[1]. والزهري نسبة إلى زهرة ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي.

ويكنى أبا القاسم، ويعرف بابن الأفليلي، والأفليلي نسبة إلى أفليلاء أو أفليل، قال الطبني (أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله، وهو ممن روى عن الأفليلي: «أخبرني (أي أبو القاسم الأفليلي) أن أفليلاء قرية من قرى الشام كان هذا النسب إليها»[2].وبالتحديد هي مدينة برأس عين من أرض الجزيرة ما بين دجلة والموصل[3]. قال ابن خلكان: «والإفليلي بكسر الهمزة، وسكون الفاء، وكسر اللام، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها لام ثانية، هذه النسبة إلى الإفليل. وهي قرية بالشام كان أصله منها»[4].

---

(١) الصلة لابن بشكوال ق ١ ص٩٣ ترجمة رقم ٢٠٦ وانظر وفيات الأعيان ج ١/٣٣ وإنباه الرواة ج ١/١٨٣، وفي شذرات الذهب ابراهيم بن زكريا الزهري الوقاصي، وفي الروض المعطار عدّه من ولد عبد الرحمن بن عوف ص ٥٠.

(٢) الصلة ق ١/٩٣

(٣) الروض المعطار في خبر الاقطار للحميري ص ٥٠.

(٤) وفيات الأعيان ج ١/٣٤.

وقال ياقوت الحموي: «أفليلاء: بفتح الهمزة؛ قال ابن بشكوال: قرية من قرى الشام، ينسب إليها أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا... الوزير الأديب الفاضل الأندلسي»[1]. وقال العماد الحنبلي: «وإفليل: قرية بالشام»[2].

ولعل رأي ياقوت الحموي في ضبط الكلمة (أفليلاء) هو الراجح؛ لأنه ينقل عن الصلة، أقرب المصادر الأندلسية إلى أبي القاسم الأفليلي، فضلاً عن أن ابن بشكوال يسند روايته إلى أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني أحد تلامذة أبي القاسم الأفليلي.

أما اختلاف المد والقصر في (أفليلاء وأفليلا) بين ياقوت وابن بشكوال فربما كان مرده إلى النساخ أو تخفيف النطق.

أسرته:

ويبدو أن الأسرة التي انحدر منها أبو القاسم الأفليلي حين قدمت إلى الأندلس من الشام انتهى بها المطاف في قرطبة، حتى غدا أبناؤها من أهلها، فوالد أبي القاسم محمد بن زكريا من أهل قرطبة، وكذلك تصف المصادر أبا القاسم الأفليلي بأنه من أهلها أيضاً. ويغلب على الظن لذلك أن أبا القاسم الأفليلي ولد في قرطبة، كان ذلك في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة[3].

وإذا كانت المصادر لا تسعف الباحث في إضاءة الجوانب الاجتماعية لأسرة أبي القاسم الأفليلي فإن ترجمة مختصرة لوالده أوردها ابن بشكوال تعين في تصور البعد الفكري والثقافي لأبي القاسم. يقول ابن بشكوال: «محمد بن زكريا الأفليلي من أهل قرطبة، يكنى أبا عبدالله، سمع من قاسم بن أَصْبَغ،

(١) معجم البلدان ١/٣٣٢.
(٢) شذرات الذهب ٣/٢٦٦.
(٣) الصلة ١/٩٣ وبغية الوعاة ١/٤٢٦.

وقاسم بن سعدان، وأبي عيسى الليثي، وأبي بكر بن الأحمر، وغيرهم، سمع ابنه أبو القاسم وأبو محمد بن عبد البر»[1].

وتفيد هذه الترجمة أن لأبي القاسم أخاً أكبر منه سناً يسمى عبدالله، لكنه فيما يبدو لم يكن له في العلم شأن يذكر به في المصادر وكتب التراجم، غير أن ابن حيان ذكر مقدمه إلى أمانة دار الطراز زمن الحكم المستنصر سنة ٣٦١ هـ، ولعله كان كاتباً فيها[2].

أما محمد بن زكريا والد أبي القاسم فقد أخذ الحديث عن أئمة أهل الحديث وأكابرهم في الأندلس، فأبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح القرطبي «إمام من أئمة العلم، حافظ مكثر مصنف، قال ابن حزم عنه: كان رحمه الله من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره، وانتشر ذكره، روى عنه جماعة من أكابر أهل بلده»[3] سمع من أخيه وبقي بن مخلد، ومحمد الخشني وابن مسرة القرطبي، والقاضي اسماعيل، ومحمد بن اسماعيل الترمذي، وعبدالله بن أحمد بن حنبل، وابن قتيبة، وله مصنفات حسنة، منها المخرج على سنن أبي داود، واختصاره المسمى المجتبى، ومنها مسند حديثه، وغريب حديث مالك، ومسند حديث مالك، وكتاب أحكام القران»[4].

وأبو عيسى الليثي يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي العالم الجليل القدر، النبيه البيت، العالي الدرجة في الحديث، روى عن أبي الحسن النحاس وسمع الموطأ من أبيه[5].

---

(١) الصلة ٤٩٢/٢ ترجمة رقم ١٠٦٤.

(٢) المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي ص ٩١ - ٩٢، وانظر البيان المغرب ٢٦٩/٢.

(٣) جذوة المقتبس ص-٣٣٠- ٣٣١ ترجمة رقم ٧٦٩.

(٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٨٨ - ٨٩.

(٥) المصدر نفسه ص-٩٩.

وأفاد محمد بن زكريا من هذه التلمذة فحدث ببعض كتب الحديث والتفسير، مثل كتاب شرح غريب الحديث لابن قتيبة[1]، وإصلاح الغلط الواقع في غريب الحديث لأبي عبيد تأليف أبي محمد بن قتيبة[2]، وكتاب مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي[3]. وهذه الكتب حدث بها جميعاً محمد بن زكريا عن محمد بن قاسم بن اصبغ.

وعلى الرغم من أن ابن خير الأشبيلي عدّه فقيهاً[4]، فإن أبا عبدالله محمد بن زكريا ظل محدثاً في نطاق ضيق من التعليم، وإطار محدود من الشهرة، إذ لم يحدث عنه عدا أبي القاسم ابنه وأبي عمر بن عبد البر[5]، ولعله لذلك أغفل ذكره ابن الفرضي (ت ٤٠٣) في تأريخه لعلماء الأندلس، فلم يترجم له، مع أنه معاصر له.

وأياً كان الأمر في قيمة هذه المكانة ونوعيتها فإن محمد بن زكريا كفل لابنه أبي القاسم تعلماً مبدئياً في تنشئته صبياً، إذ جرت العادة أن يأخذ الأبناء عن آبائهم، إذا كانوا على جانب من العلم والثقافة، المواد الأساسية المعينة على تنمية الحفظ والذاكرة، من حفظ القران وبعض المتون فضلاً عن مهارة إتقان الخط، قبل أن يدفع بهم إلى حلقات المساجد لدراسة العلوم العقلية[6]، وربما أغناه هذا الأخذ المبكر عن المدارس التي عرفت في الأندلس زمن الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) من أجل تعليم التلاميذ الفقراء[7].

---

(١) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص ١٨٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٠.
(٤) فهرسة ابن خير ص ١٨٨.
(٥) الصلة ٢/٤٩٢.
(٦) التربية الإسلامية في الأندلس ـ خوليان ريبيرا ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٧) البيان المغرب ٢/٢٤٠.

زد على ذلك أن محمد بن زكريا تعهد ابنه أبا القاسم قبل سن اليفاع بالحديث النبوي الشريف، ورواه كتاب الأمثال لأبي عبيد[1].

ثقافته وشيوخه

وعلى ذلك فليس بعيداً عن الصواب إذا قلنا إن أبا القاسم الأفليلي كان توجهه إلى علوم الرواية الشرعية مبكراً، إذ لم يجاوز منتصف العقد الثاني من عمره حتى سمع موطأ مالك من شيخه أبي عيسى الليثي (ت ٣٦٧ هـ) الذي كان عالي الدرجة في الحديث وكانت الرحلة إليه للسماع فرواه عنه[2].

ولما بلغ أبو القاسم الأفليلي السابعة عشرة من عمره قدم من سفره في رجب سنة (٣٦٩ هـ) أبو زكريا يحيى بن عائذ بن كيسان، بعد رحلة طويلة تردد بالمشرق فيها نحواً من اثنين وعشرين سنة، فتنوع سماعه في مصر وفي بغداد، وسمع في بغداد من سبعمائة رجل ونيف، وجمع علماً لم يجمعه أحد من قبله من أصحاب الرّحَل إلى المشرق، وكتب عن طبقات المحدثين وكتب الناس عنه كثيراً في المشرق[3].

وسعى أبو القاسم الأفليلي إلى المسجد الجامع بقرطبة مع ضروب من الناس وطبقات من طلاب العلم وأبناء الملوك، للانتفاع بمجلس أبي زكريا عائذ ابن يحيى بن كيسان الذي كان يملي فيه على المجتمعين في كل يوم جمعة، بل استأثر أبو القاسم الأفليلي بعناية هذا العالم فروى عنه، وعُدَّ أبو زكريا يحيى بن عائذ من شيوخه[4]، واختصه بكتاب الكامل سماعاً عليه، قال ابن الأفليلي:

---

(١) فهرسة ابن خير ص ٣٣٩.
(٢) الصلة ٩٠٣/١ وشجرة النور الزكية ص ٩٩.
(٣) تاريخ علماء الأندلس ١٩٣.
(٤) الصلة ٩٣/١.

«وحدثني به أيضاً أبو زكريا يحيى بن ملك بن عائد، سماعاً عليه، بقراءة عيسى بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة سنة ٣٧٥ هـ»[١].

وروى أبو القاسم الأفليلي عن أبي محمد عبدالله بن محمد بن قاسم القلعي[٢]، وهو محدث أندلسي فاضل، زاهد عالم، مذكور الشجاعة، كان قد رحل إلى المشرق، فوصل إلى العراق، وسمع بالبصرة من أبي اسحق إبراهيم بن سعيد البصري المالكي صاحب القاضي ابن بُكير، مؤلف أحكام القران، وعند عودته حدث بالأندلس[٣].

وفي مجال علوم اللغة والأدب اتصل أبو القاسم الأفليلي بعلماء المشرق ورواته الثقات، عن طريق تلمذته لعلماء عصره المعدودين ممن اتصلت روايتهم عن طريق أبي علي القالي بسيبويه والمبرد وابن السكيت وابن قتيبة والأخفش ونفطوية وابن درستويه وثعلب وأبي إسحاق الزجاج وابن الأعرابي وأبي زياد الكلابي.

وكان أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي (ت ٣٥٦) قد دخل الأندلس عام ٣٣٠ هـ، بعد أن سمع الحديث في بغداد من أبي القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، وأبي سعيد الحسن بن علي بن زكريا بن يحيى بن صالح بن عاصم بن زفر العدوي، ومن أبي يعلى الموصلي، إلا أنه مال إلى اللغة والأدب، فأخذ عن أبي بكر السجستاني وابن دريد وابن السراج وأبي إسحاق الزجاج وأبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ونفطوية وابن الأنباري وابن قتيبة وابن درستويه، وغدا أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين[٤].

---

(١) فهرسة ابن خير ص ٣٢٢.

(٢) الصلة ١/٩٣.

(٣) جذوة المقتبس ٢٥٤ ترجمة ٥٣٦.

(٤) جذوة المقتبس ص ١٦٣ ترجمة ٣٠٣ ونفح الطيب ٣/٧٣ ـ ٧٤.

وروى عن القالي من شيوخ أبي القاسم الأفليلي؛ أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي، وأبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد، وأبو عبدالله محمد بن عاصم العاصمي، وأبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب، وكان كل منهم إماماً عالماً مقدماً في عصره، وقد صحت اللغة في الأندلس بعد القالي عن طريق ثلاثة: سعيد بن عثمان بن أبي سعيد... المعروف بابن القزاز[1]، وعن طريق ابن أبي الحباب، وأبي بكر الزبيدي.

فأبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩) أخذ العربية عن أبي علي القالي، وأبي عبدالله الرباحي، وأكثر الأخذ عن أبي علي ولازمه[2]. وروى أبو القاسم الأفليلي عنه كتاب النوادر[3] لأبي علي القالي، وكتاب الميسر لابن قتيبة[4]، ونوادر أبي زياد الكلابي[5]، وشعر أعشى بكر[6]، وكتاب أبنية سيبويه[7]، ولحن العامة[8]، ونوادر ابن الأعرابي[9].

وأبو القاسم أحمد بن أبان بن سيد اللغوي الأندلسي (ت ٣٨٢) أخذ عن القالي وروى عنه كتاب النوادر[10]، وكان عالماً إماماً في اللغة والعربية، حاذقاً أديباً، حافظاً للأخبار والأنساب والشواهد والتواريخ، ولي أحكام الشرطة، وألف كتاباً سماه كتاب العالم في اللغة، وهو في مائة مجلد، أثنى عليه ابن حزم وفاخر به[11].

---

(١) أنظر ترجمته في الصلة ١/٢٠٨ رقم ٤٦٨.
(٢) شجرة النور الزكية ص ١٠٠.
(٣) فهرسة ابن خير ٣٢٤.
(٤) فهرسة ابن خير ٣٧٨.
(٥) فهرسة ابن خير ٣٨٠.
(٦) فهرسة ابن خير ٣٩٢.
(٧) فهرسة ابن خير ٣٤٥.
(٨) فهرسة ابن خير ٣٤٦.
(٩) فهرسة ابن خير ٣٧٢.
(١٠) الصلة ١/٨ ترجمة رقم ٦.
(١١) انظر جذوة المقتبس ص ١١٨ والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ١٣.

روى عنه أبو القاسم الأفليلي وحدث عنه بكتب عدّة كان قد رواها أحمد بن أبان عن شيخه أبي علي القالي، من ذلك كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام[١]، وكتاب الألفاظ لابن السِّكّيت[٢] وديوان الأشعار المفضليات[٣]، وشعر أبي تمام[٤]. أما كتاب الكامل فقد حدث به أحمد بن أبان عن أبي عثمان بن سعيد بن جابر الأشبيلي عن أبي الحسن الأخفش عن المبرد، فأخذه الأفليلي عنه متصلاً بهذا السند المتقدم[٥].

وأبو عبدالله محمد بن عاصم العاصمي (ت ٣٨٢) من شيوخ الأفليلي، قال عنه الحميدي: «نحوي مشهور، إمام في العربية، ذكره أبو محمد علي بن أحمد وأثنى عليه، وقال: كان لا يقصر عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد، روى عن أبي علي القالي البغدادي وعن أبي عبدالله محمد بن يحيى الرباحي، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية[٦]، وقد حدث عنه أبو القاسم إجازة بكتاب سيبويه[٧].

وكان ابن أبي الحباب، أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحباب النحوي (المتوفى سنة ٤٠٠ هـ) ممن روى عنه أبو القاسم الأفليلي كتباً معدودة مشهورة، مثل كتاب فائت الفصيح لأبي عمر المطرز، حدث به الأفليلي عن ابن ابي الحباب عن ابي علي البغدادي عن المطرز [٨]، وكتاب فعلت وأفعلت لأبي إسحاق الزجاج حدث به أبو القاسم الأفليلي عن ابن أبي الحباب عن أبي علي البغدادي عن أبي إسحاق الزجاج مؤلفه [٩]. وكتاب

(١) فهرسة ابن خير ٣٢٧.
(٢) فهرسة ابن خير ٣٣٠.
(٣) فهرسة ابن خير ٣٩٠.
(٤) فهرسة ابن خير ٤٠٢.
(٥) فهرسة ابن خير ٣١٩ ـ ٣٢٠.
(٦) أنظر جذوة المقتبس ص ٧٩ ـ ٨٠ ترجمة رقم ١٢٢ والصلة ٤٧٨/٢ ترجمة رقم ١٠٣٤ وبغية الوعاة ١٢٣/١.
(٧) فهرسة ابن خير ٣٠٥.
(٨) فهرسة ابن خير ٣٣٨.
(٩) فهرسة ابن خير ٣٥٢.

خلق الإنسان لأبي محمد بن ثابت بن أبي ثابت حدث به الأفليلي عن ابن أبي الحباب عن أبي علي البغدادي [1]. وكتاب اختيار فصيح الكلام لثعلب حدث به أبو القاسم الأفليلي عن أبي عمر بن أبي الحباب عن أبي علي القالي البغدادي عن شيوخه أبي عمر المطرز ونفطويه وأبي بكر بن الأنباري[2]. وكذلك كتاب أدب الكتاب فقد رواه الأفليلي عن أبي عمر بن أبي الحباب عن أبي علي القالي عن القاضي أبي جعفر أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة عن أبيه[3].

هذا وكان أبو عمر بن أبي الحباب قد روى عن أبي علي القالي ولازمه وكانت له منه خاصة، وكان أبو عمر من جلة شيوخ الأدب، عالماً باللغة، حافظاً صحيح الرواية، جيد الضبط، شديد الحفظ للغة، بصيراً بالعربية، حسن الإيراد لما يحمله[4].

أما ابن العريف أبو القاسم حسين بن الوليد النحوي الذي توفي بطليطلة سنة ٣٩٠ هـ فكان ممن روى عنه أبو القاسم الأفليلي كتاباً له، فيه معاني الحروف وأقسامها[5]، فضلاً عن شعر أبي الطيب المتنبي، قال الأفليلي: «قرأته على أبي القاسم الحسين بن الوليد، ويعرف بابن العريف، عن أبي بكر الطائي وابراهيم المغربي، كلاهما عن أبي الطيب المتنبي»[6].

وابن العريف النحوي الذي رحل إلى المشرق وسمع فيها، مقدم في الشعر، وأستاذ في الآداب كان في أيام المنصور بن أبي عامر، يحضر مجالسه، وله مع صاعد اللغوي اجتماعات ونوادر مشهورة[7].

(١) فهرسة ابن خير ٣٦٤.
(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٩٩.
(٣) فهرسة ابن خير ٣٣٤.
(٤) الصلة ١/١٩ ـ ٢٠ ترجمة رقم ٣٥.
(٥) فهرسة ابن خير ٣٢٠.
(٦) فهرسة ابن خير ٤٠٣.
(٧) أنظر الجذوة ١٩٤ ترجمة ٣٧٧ وبغية الوعاة ١/٥٤٢ ـ ٥٤٣.

وأغنى هؤلاء العلماء بما حملوا من علم أو رووا من ثقافة أبا القاسم الأفليلي عن الرحلة إلى المشرق، التي كانت أهميتها ترتبط بتعميق دراسات الباحثين عن العلم أو تصحيح معارفهم وإثرائها، لأن المشرق في نظر الأندلسيين مهد الثقافة ، فمن أراد أن يرتوي من ينابيعها عليه أن يردها في مصادرها الأولى[1].

على أنه لا يضير أبا القاسم الأفليلي في علمه، ولا ينتقص من مكانته وفضله ألا تكون له رحلة إلى ينابيع الثقافة وأصول العلم، وقد اتصل بسواقيها المتدفقة علماً وحفظاً وضبطاً، ورواية ودراية، وشأن أبي القاسم في هذا شأن كثير من حفاظ الأندلس وفقهائها وعلمائها ممن شهر علمهم وفضلهم بالأندلس، كأبي عمر يوسف بن عبد البر الذي لم يخرج عنها، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة ومن القادمين الغرباء[2]. كذلك يقال عن ابن حيان المؤرخ (حيان بن خلف بن حيان ت ٤٦٩).

والمتبصر لما روى أبو القاسم الأفليلي عن أشياخه الستة يدرك تنوع مصادره الفكرية التي مدارها على علوم الشريعة أصولاً وفروعاً، غير أن لعلوم العربية غلبة واضحة عليه في فترة الطلب، وهي ليست مؤشراً على وضوح الميل الأدبي واللغوي فحسب، بل فيها نصيب كبير من دلالة على استعداد مباين للسلطة وبعيد عن التسلط. ذلك أن إقبال الطلاب وتزاحمهم تركز في دراسة الفقه دون غيره من علوم الشريعة لما يحقق لهم من فرص وظيفيّة في الدولة دينيّة كانت أو مدنية، بل إن سلطان الفقهاء ودورهم كان مميزاً وخطيراً في التأثير في أوامر الدولة وأمورها، وقد انتهى بهم الأمر أن أضحوا سلطة حقيقية خطيرة داخل الدولة في الأندلس[3].

---

(١) التربية الإسلامية في الأندلس ١٠٨، ١٣٨.

(٢) بغية الملتمس ٤٨٩ ترجمة رقم ١٤٤٣ والجذوة ترجمة ٨٧٤.

(٣) التربية الإسلامية في الأندلس ص ٣٠.

وليس معنى ما سبق أن علوم اللغة لم تكن لتحقق لصاحبها فرصة في رفعة الشأن وعلو المنزلة في الدولة الأندلسية. لأن كثيراً من اللغويين والأدباء نالوا من ذلك ما تجاوز بهم تحرير الدواوين وصنعة الكتابة إلى الوزارة، إلا أن جلال هؤلاء العلماء لا يقايس بسلطان أولئك الفقهاء.

ولا يعرف على وجه التحديد إن كان أبو القاسم الأفليلي يختلف إلى أشياخه السابقين في مجالسهم العامة في المساجد، أو أنهم كانوا يختصونه بدروسهم في منزله أو منازلهم، فلا يملك الباحث دليلاً على هذا أو ذاك، إلا أن يكون في عدد مروياته عن بعض أشياخه كالزبيدي وأحمد بن أبي الحباب إشارة إلى طول المصاحبة والتلمذة التي لا تقوم بها حلقات الشيخ العامة، إذ أن استئثار الطالب بأستاذه، وإيثار الأستاذ طالبه مما تضطلع به الدروس الخاصة، والقراءة المتأنية.

ولا يخلو عدد الأشياخ وعدد المرويات أيضاً من بعض الشواهد على يسار والده أو ثروة أسرته وذلك من ناحيتين: أولهما: ما دفع لهؤلاء الأساتذة لقاء تعليمهم له على سبيل العطايا والهبات، أو على سبيل الأجر[1]، مع الاحتراس أن بعض من كان يتصدى للتعليم في الأندلس كان يدرس تقوى أو حباً في التعليم.

وثانيهما: اختيار الأساتذة الأكفياء لتدريسه ممن ذاعت شهرته، ونبه ذكره بالعلم في قرطبة، فأدب الأمراء وأبناءهم إلى جانب تأديبه صبيته، ونخص من أساتذة أبي القاسم الأفليلي وأشياخه ثلاثة هم: أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي الذي أدب ولد الحكم المستنصر[2]، وابن العريف النحوي أبو القاسم الحسين بن الوليد الذي أدب أولاد المنصور محمد بن أبي عامر[3]،

(١) انظر تفصيل ذلك في التربية الإسلامية في الأندلس ١١٩ ـ ١٢٧.
(٢) بغية الوعاة ٨٤/١ وبغية الملتمس ترجمة ٨٠.
(٣) بغية الوعاة ٥٤٢/١.

وأبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن فرح المعروف بابن أبي الحباب الذي عهد إليه المنصور محمد بن أبي عامر بتأديب ابنه عبد الملك المظفر[1].

(١) الصلة ١/ ٢٠ ترجمة رقم ٣٥.

أبو القاسم الأفليلي والدولة العامرية ٣٦٦ ـ ٣٩٤ هـ

امتد طلق العمر بأبي القاسم الأفليلي حتى ناهز التسعين، إذ توفي رحمه الله «في آخر الساعة الحادية عشرة وأول الساعة الثانية عشرة من يوم السبت، الثالث عشر من ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، ودفن في صحن مسجد خرب عند باب عامر»[١].

وشهد أبو القاسم الأفليلي بهذا العمر المديد (٣٥٢ ـ ٤٤١ هـ) دولة الإسلام في الأندلس تتقلّب بها الأحوال والأهواء من حال إلى حال، فمن الخلافة الأموية إلى الدولة العامرية، فسقوط الخلافة، ثم الفتنة المبيرة، ثم تمزق الأندلس إلى دويلات الطوائف.

كان أبو القاسم الأفليلي في عامه الرابع عشر حين ودعت الأندلس الحكم المستنصر عام ستة وستين وثلاثمائة لاحقاً بربه، بعد أن أرسى قواعد نهضة فكرية، ودعائم وثبة ثقافية إذ «جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان، ونفق ذلك عليه، فحمل إليه»[٢]

ولم يغفل الحكم المستنصر عن استنهاض الحركة الفكرية والأدبية الموازية للتأثير المشرقي الدافق في هذه النهضة، فوجه الأندلسيين إلى تحقيق ذواتهم

(١) الصلة ٩٣/١، وأنباه الرواة ١٨٤/١ بغية الوعاة ٤٢٦/١، ولم يشذ عن هذا التاريخ إلا الفيروزأبادي في البلغة إذ جعل وفاته ٤٥١ هـ (انظر ص ٩).

(٢) جذوة المقتبس ص ١٣ وانظر الحلة السيراء ٢٠١/١.

نزوعاً إلى الأندلسية في التفرد والاستقلال، فانعطفوا إلى تراثهم تدويناً ودراسة في مختلف مجالات المعرفة[1].

وعى أبو القاسم الأفليلي هذين الاتجاهين؛ جمع التراث المشرقي، وتدوين النتاج الأندلسي في ظل خلافة إسلامية حقيقية، الخليفة فيها له الأمر، وبيده زمام الحكم والملك، ثم ما فتىء الحال السياسي أن تبدل، حين استأثر بالحكم محمد بن أبي عامر الذي عمل حاجباً للخليفة هشام بن الحكم، الذي ولي وله من العمر عشر سنوات وعدة أشهر، وما زال محمد بن أبي عامر متغلباً عليه، مستبداً بالأمور كلها إلى أن مات عام ٣٩٢ هـ.

حقاً لقد نعم الناس برخاء في ظل قوة حربية عمل المنصور على ديمومتها استمراراً لهيبة دولة الإسلام في الأندلس، إذ كان محباً للجهاد، يغزو في كل عام مرتين، وقد بلغت غزواته نيفاً وخمسين غزوة، ظل النصر فيها حليفاً له[2].

إلا أن الجو السياسي لم يكن نظيفاً أو طبيعياً في متنفسه؛ لأن المنصور ابن أبي عامر عمل على تحقيق ذاته ومطامعها بمساعدة غيره تارة، وبذكائه ومواهبه تارة أخرى، وكان تعلقه بذاته النزاعة إلى التفرد والتسلط طاغياً، فحمله ذلك إلى التخلص من أقرانه وأصدقائه، بدءاً بالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وانتهاءً بالقائد غالب مولى الناصر، فضلاً عمن كان يحاول السعي لطلب الأمر كما هو الشأن في عبد الرحمن المستكفي الذي قتله لذلك. فكان المنصور كما يقول الحميدي «من الجبابرة الذين أطغتهم النعمة، ونزعت من قلوبهم الرحمة»[3].

ولم يكن تخلص ابن أبي عامر مقصوراً على منازعيه في السلطان

(١) انظر تفصيل ذلك في الأدب الأندلسي د/ أحمد هيكل ص ١٨٤ ـ ١٩٤ وعصر سيادة قرطبة ٦٢ ـ ٨١

(٢) جذوة المقتبس ص ٧٩ ترجمة ١٢١.

(٣) جذوة المقتبس ص ٢٦، ٢٩ وانظر الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٦.

والسيادة، بل إن أدنى هفوة يقع فيها وزير أو كاتب أو متصل بخدمة السلطان كانت كفيلة بأن تودي به إلى التهلكة أو السجن.

وكما كان المنصور بن أبي عامر في غاية من الدهاء السياسي، فلم يعوزه الذكاء الإداري المقارن في استمرارية الحركة العلمية في الأندلس نحو الذروة التي بلغتها زمن الحكم المستنصر، إلا أنه أطلقها في علوم الشريعة دون علوم الأوائل من الفلسفة وما جرى في مدارها من المنطق والفلك وما أشبه.

ففي الوقت الذي أراد المنصور أن يعفي على آثار أبي علي القالي الوافد على بني أمية بصاعد بن الحسن الربعي اللغوي، لبعث حركة لغوية رديفة لسابقتها، فقد «أحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر من كبار العلماء منهم الأصيلي وابن ذكوان والزبيدي وغيرهم، واستولى على حرق جميعها بيده»[1].

وسواءٌ أكان توجه المنصور بن أبي عامر في هذا الإحراق صدقاً واعتقاداً، أم تزلفاً للفقهاء وإرضاءً للعامة من الناس لتغطية استئثاره بالسلطة دون الخليفة الحقيقي، فقد أوقع بكثير من الناس، فقتل وصلب وزج بالسجن خلقاً من أهل العلم، وطلب النجاة بعضهم بالهجرة إلى المشرق[2].

ولم يكن أبو القاسم الأفليلي بمعزل عن توجه المنصور العلمي أو بمأمن من دهائه السياسي، فقد كان له موقف من صاعد اللغوي، وكان للمنصور موقف من توجهه الفكري.

كان أبو القاسم الأفليلي قد جاوز الثلاثين من عمره بثلاث سنوات، حين بدأ أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي بتأليف كتابه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار، أو بإسماعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة عقب

(١) البيان المغرب ٢/٢٩٢.

(٢) انظر الحلة السيراء ١/٢٧٣ والبيان المغرب ٢/٢٩٣.

سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة[1].

وغير بعيد عن القبول أن يكون أبو القاسم الأفليلي واحداً ممن احتشدوا لسماع صاعد، فلكل جديد بهجة، ولكل طارىء دهشة، فيما يقال، بل إن ما يحمله الأفليلي من علم يحفزه على المقارنة، اختباراً لما عنده بما عند غيره، للمفارقة أو الموافقة، وقد كان الأفليلي في هذه المرحلة إن لم يكتمل علمه رواية، فقد أكسبه الاختلاف إلى شيوخه الأجلاء دراية تجعله قادراً على التمييز والتوثيق والضبط.

وإذا كان إقبال أبي القاسم على مجالس صاعد مقبولاً، فأغلب الظن أن انتفاعه بما دار فيها من عرض للنادر والغريب من اللغة والشعر كان قليلاً، بل ربما عارضه أبو القاسم الأفليلي أو ناقضه، حرصاً على سلامة العلم وقوامته، وإدلالاً بقدرته على الفهم وسعة المحصول؛ خاصة أنه «كان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكباً رأسه في الخطأ البين إذا تقلده»[2].

ويترجح هذا الظن لدي بأسباب:

أولاً: لم تحدث المصادر عن صلة عامة أو خاصة بين أبي القاسم الأفليلي وصاعد اللغوي، كالتلمذة عليه، أو الاتصال به، أو مجالسته، كما هو شأن معاصره أبي مروان حيان بن خلف (٣٧٧ ـ ٤٦٩) الذي لزم صاعداً وقرأ عليه كتاب الفصوص منفرداً في داره سنة ٣٩٩[3].

ثانياً: ما شاع عنه من كذب فيما كان يسأل عنه في مجالس المنصور بن أبي عامر، إذ كان يجيب بادعاء باطل، وجواب كاذب، قال ابن بشكوال:

(١) الصلة ١/٢٣٨.
(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.
(٣) الصلة ١/١٥٢ ترجمة ٣٤٤ و١/٢٣٨.

«قلت: وكان صاعد هذا يتهم بالكذب، وقلة الصدق فيما يورده عفى الله عنه»[1] ولا يصدّقه ابن حزم ولا يوثّقه إلا في بعض ما كان يتناوله من مسائل فيقول: «وكان أبو العلاء كثيراً ما تستغرب له الألفاظ، ويسأل عنها فيجيب بأسرع جواب، على نحو ما يحكى عن أبي عمر الزاهد، ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزاح. لما حمل إلا على التصديق، وقد ظهر صدقه في بعض ما قال»[2]. والعلم لا يؤخذ من كذاب، إذ كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: «لا تأخذوا العلم عن أربعة، وخذوا عمن سواهم؛ لا يؤخذ من سفيه مُلْعن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث»[3]. على أن من عرف الثقات وخبر روايتهم وضبطهم ودرايتهم لا يتردد في ترك من كان في صفة صاعد من الرواية.

ثالثاً: أن تلامذة أبي علي القالي وقفوا مترصدين لصاعد اللغوي في مجالس المنصور بن أبي عامر، متحاملين عليه أيضاً، فمنهم من ألف في مناكير كتابه المسمى بالفصوص في النوادر والغريب، كابن القزاز سعيد بن عثمان[4]. ومنهم من كان يعارضه ويناقضه في الشعر ويتهمه بالسرقة، كابن العريف، الذي كان كثيراً ما يحسد صاعد على منزلته عند المنصور، واستحسانه لشعره[5]. يقول ابن بسام في موقف أهل الأدب من صاعد وكتابه: «فلما أكمله وتتبعه أدباءُ الوقت، لم تمر فيه كلمة زعموا صحتها

(١) انظر الجذوة ٢٤٢ ـ ٢٤٣ والصلة ١/٢٣٨

(٢) جذوة المقتبس ٢٤١.

(٣) فهرسة ابن خير ص ١٩.

(٤) الصلة ١/٢١٠ ترجمة ٤٦٨.

(٥) انظر الذخيرة ق ١ م ١ ص ٧.

عندهم، ولا خبر ثبت لديهم. فقالوا للمنصور: رجل مقتدر على تأليف الكذب من عيون الأدب، يسندها إلى شيوخ لم يرهم، ولا أخذ عنهم»[1].

ومن نافل القول أن نقول إن الأفليلي لم يكن تلميذاً لابن العريف فحسب، بل إنه يحمل ولاءً مميزاً لمدرسة القالي وشيخها بما أخذه عنها، فأدرك ما أدركه شيوخه من غايات المنصور السياسية والعلمية ذات المساس المباشر بأبي على القالي ومنزلته العلمية حين «أراد المنصور أن يعفي على آثار أبي علي البغدادي الوافد علي بني أمية قبله، وهزه لذلك، فألفى سيفه كهاماً، وسحابه جهاماً»[2] فانبرى أبو القاسم الأفليلي لصاعد اللغوي بطريقة ما، مفسداً عليه دروسه، مبدداً للمنصور آماله وغاياته.

وإذا كان عدم انتفاع أبي القاسم الأفليلي بدروس صاعد ـ بما قدمنا من أسباب ـ لم يحرزه من التّماس بركن الحركة العلمية آنذاك، فقد فرض ذلك مساساً مباشراً بتحالف صاعد والمنصور إن صح التعبير، إذ عظم شان صاعد عند المنصور وعظم شأن المنصور عند الناس به؛ مما أوقع على أبي القاسم الأفليلي، ما يقع على من يتطاول بكلمة على مقام الحكام، وسهل لعقابه الحال السياسي الموبوء بالنفاق والتعصب الفكري إذ «لحقته تهمة في دينه في أيام هشام المرواني في جملة من تتبع من الأطباء في وقته كابن عاصم والشبانسي والحمار وغيرهم، وطلب ابن الأفليلي وسجن بالمُطْبق، ثم أطلق»[3].

ولا يزيد ابن حيان، الذي أسند إليه ابن بسام رواية الخبر، شيئاً يوضح ماهية التهمة، ومدة مكثه في السجن، وكيف أطلق؟

وعلى الرغم من أن في سرعة سرد الخبر دلالة على أن الأمر لا يعدو

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٥،
(٢) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٩.
(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.

كونه عابراً في حياة أبي القاسم، فضلاً عن أنه لم يمكث في السجن طويلاً، إلا أن تتبعه في جملة الأطباء يعطي مؤشراً على تعامل بالمنطق والفلسفة، وما يتصل بهما من أخذ بالتأويل في قضايا العقيدة.

كان سعيد بن فتحون بن مكرم، أبو عثمان السرقسطي التجيبي القرطبي النحوي على علم وتصرف في حدود المنطق، وله حظ من علوم الفلسفة، وله شعر في الدفاع عن المنطق، وذم الناس له. إذ يقول:

ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه بالذي ليس فيه إذ جهلوه
لو دروا حقه لما أنكروه أو دروا فضله إذن فضلوه
كذبوا الإله لو عرفوه لنفوا عنه كل ما نحلوه

وامتحن سعيد بن فتحون الملقب بالحمار من قبل المنصور بن أبي عامر فسجن، ثم أطلق فسافر إثر ذلك إلى صقلية وبقي فيها إلى أن مات سنة ٤١٠ هـ، وهو مجيد بصناعة المنطق وله رسائل مجموعة تدل على تمكنه من هذه الصناعة[1].

وكذلك كان حال الشبانسي، قاسم بن محمد القرشي المرواني، فقد ذكر ابن حزم أنه قَرَف، وشهد عليه عند القضاء بما يوجب القتل فسجن، واستعطف المنصور بن أبي عامر بقصيدة يسأله فيها التثبت في أمره، وحقن دمه، وقد رقّ له المنصور فأطلقه[2].

إن معرفة هذين النموذجين يفرض على الباحث عن تهمة أبي القاسم الأفليلي تساؤلات عدة؛ أكان لأبي القاسم صلة بهؤلاء الممتحنين من حيث أن رحماً مشتركاً في النحو والأدب يجمع بينهم؟ أم أن انعطافاً فكرياً إلى الفلسفة والمنطق أحدثه أبو القاسم في تحصيله العلمي، من غير خوف من المحذور،

(١) انظر في ترجمته جذوة المقتبس ص ٤٧٨ وبغية الوعاة ١/٥٨٦ طبقات الأطباء ٤٩٢ ونفح الطيب ٣/١٧٥.

(٢) جذوة المقتبس ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ترجمة رقم ٧٦٧.

فأخذ بجريرة الإقبال على الممنوع؟ هل لفق له أعداؤه من المقربين من المنصور هذه التهمة؟ أم أن بضاعة النحو في اعتمادها على التأويل في تفسير بعض الآيات وتوجيه القراءات أوقعته في غير مقاصده، أو في شر نوايا أعدائه وحساده؟ لا نملك دليلاً نقلياً صريحاً خاصاً بصلات أبي القاسم ببعض ممن اتهم من الأطباء، لكننا لا نستطيع أن ننفي ذلك عقلياً، إذ فرضت الحركة العلمية في قرطبة في أواخر القرن الرابع الهجري صلات وثيقة بين شداة الأدب وأهل العلم وطلابه لا في مجالس العلم العامة فحسب، بل في الحلقات الخاصة أيضاً، بما يحمل على القول بتأثره على نحو ما بهذه الفئة.

لقد غدا علم الكلام ودلائله، والحساب وبراهينه من المنطق وخلافه، صفة ظاهرة في ثقافة أبي القاسم وأسلوبه في المحاورة والجدل والمناقشة، يقول ابن شهيد في ذلك: «وليس العجب من هذه العصابة إلا من أبي القاسم، فإنه زاد عليهم في الصناعة، وبزّهم بوفور البضاعة، دخل الشعراء فأخذ لباقتهم، وصار في جملة الكتاب فاستعار صلفهم ورشاقتهم، وباشر أهل الحساب فاستفاد طريقة البراهين، وناظر أهل الجدل فتعلم القوانين»[1].

وأغلب الظن أن أبا القاسم الأفليلي لم يأخذ الفلسفة وعلم الكلام إلا في مرحلة متأخرة، بعد أن نضج فكره واستوى عوده العلمي، ولم تكن من طريق شيوخه في مرحلة الطلب عند اليفاع أو بعده بسنوات، إذ كان أمر ذلك بينهم متبايناً بين الدفع والأخذ، فأبو بكر الزبيدي له كتاب في الرد على ابن مسرة القرطبي وأهل مقالته، سماه (هتك ستور الملحدين)[2] في حين كان لأبي عبدالله محمد بن عاصم العاصمي حظ في علم الكلام[3].

ويظل تلفيق الاتهام ظاهرة جلية في هذه الفترة من الطغيان السياسي في

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٦ (ط القاهرة).
(٢) بغية الوعاة ١/٨٥.
(٣) بغية الملتمس ١/٣٨٢ وبغية الوعاة ١/١٢٣.

الأندلس زمن المنصور بن أبي عامر، إذ كان يلاحق الناس في أفكارهم وآرائهم، فقد «أصبح من المعتاد أن يسمع الناس عند باب المسجد الجامع، وفي أيام الأعياد، وعند انتهاء الأعمال حيث يبلغ الزحام قمته، من يشهر باسم واحد من أشهر الأدباء في قرطبة، يشك في زندقته، ويبحثون بين عامة الناس عمن يستطيع أن يشهد ضده، حتى تستكمل المحاكمة أركانها الضرورية، ويصبح الحكم شرعياً»[1].

قد يكون الأخذ بالفكر الاعتزالي[2] أو حمل أفكار المؤوّلة أقرب تهمة مشاكلة لصنعة أبي القاسم الأفليلي اللغوية، لأن طريقة فهم المعتزلة للعقائد عقلية خالصة، «فإن بدا خلاف في ظاهر النصوص بين رأي يقرونه ونص يقرءونه أوّلو النص بما لا يخرج عن معناه ولا يخالف رأيهم، وهذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل. وللعقل نزوات وعرة، ولذلك وقعوا في كثير من الهنات»[3]. ويعزز القول بهذه التهمة ما جاء في شعر موسى بن الطائف الشاعر المشهور أيام المنصور بن أبي عامر، إذ قال يهجو أبا القاسم الأفليلي في محنته هذه[4]:

يا مبصراً عميت نواظر فهمه ... عن كنه عرضي في البديع وطولي
. . . ولئن ثلبت الشعر وهو أباطل ... فلقد ثلبت حقائق التنزيل
وخلعت ربق الدين عنك منابذاً ... ولبست ثوب الزيغ والتعطيل
وأقمت للجهال مثلك في الغبا ... علماً مشيت أمامه برعيل

(١) سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ص ١٦٧ نقلاً عن التربية الإسلامية في الأندلس ص ٣٦.
(٢) عرف الأندلس الفكر الاعتزالي وعلم الكلام، ولكن لم تظهر فيه الخصومة التي شهدها المشرق، يقول ابن حزم «وأما علم الكلام فإن بلادنا، وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب، فهي على كل حال غير عرية عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال، نظار على أصوله، ولهم فيه تواليف» (نفح الطيب ٣/١٧٦) ط دار صادر.
(٣) تاريخ المذاهب في الإسلام محمد أبو زهرة ج ١ / ١٤٨.
(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٣.

ومن المغائظ أن تكون مقلداً عالماً، ولو مقدار وزن فتيل
تعتل في الأمر الصحيح معانداً أبداً وفهمك علة المعلول

إن المعطلة التي رمى بها موسى بن الطائف أبا القاسم الأفليلي سواء أكانت معتزلة أو أشعرية أو غيرها من فرق علم الكلام، إنما تنفي عن الله صفات المعاني، وهي القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات المذكورة في القران، وتؤوّل هذه الفرق ما ذكر في القران على أنه أسماء للذات العلية وليس وصفاً لها[1].

وأبو القاسم الأفليلي غير مذكور في طبقات المالكية، ولا عد من فقهائهم، ولا شهرة له بينهم، إلا أن ذلك لا يمنع من نفي تهمة موسى بن الطائف إذا نظرنا إلى الأسباب التالية:

أولاً: لم يشر أحد من قريب أو بعيد إلى قوله بالتعطيل، بل أثنى عليه من ترجم له بالخلق والدين فهو «صادق اللهجة، حسن الغيب، صافي الضمير، حسن المحاضرة، مكرماً لجليسه»[2] ومدحه أيضاً ابن شهيد بذلك في قوله[3]:

غير أني مع الوزير أبي القا سم حزب محض من الأحزاب
التقي النقيّ كهلاً وطفلاً فارس الجيش راهب المحراب

ثانياً: إن تديّن الأستاذ مطلب أساسي في إقبال الطلاب المتتلمذين عليه للأخذ عنه، قال ابن سيرين: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[4] وإن بعض الشك في تدين الأستاذ كفيل بانسلاخ الطلاب عنه، ولا يكفي في الأندلس أن يكون الأستاذ مستقيماً وعلى مذهب أهل السنة

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ٢ / ٢١٣.
(٢) الصلة ١/٩٣.
(٣) ديوان ابن شهيد ص ٨٧.
(٤) صحيح مسلم «باب بيان أن الإسناد من الدين» ١/١٤.

فحسب، بل من الضروري أن يجمع إلى ذلك العمل بالمذهب المالكي[1].

وكان الأفليلي متصدراً في علم الأدب، يقرأ عليه، ويختلف فيه إليه[2]. وعرف من تلامذته من كان ثقة ديناً فاضلاً ورعاً متواضعاً كثير الصلاة مثل أحمد بن عبدالله التميمي المعروف بابن طالب[3].

ولو كان الأمر في هذه التهمة على الصحة والحق لانفض الناس من حوله كما انفضّوا عن غيره ممن عرف بمذهب مخالف لما عليه أهل الأندلس، فأيوب بن سليمان انصرف عنه الطلاب فلم يدرس لأحد غير ابنه؛ لأنه كان مائلاً في مذهبه إلى الحجة، ولهج بالنظر، ولا يرى التقليد. ومحمد بن مفرج المعروف بالفاني ترك الناس الأخذ عنه وأصبح بلا طلاب؛ لاعتقاده مذهب ابن مسرة الذي يقوم على آراء المعتزلة والباطنية، وكان يقول بالاستطاعة وكونية العالم أو وحدة الوجود، وتحريف التأويل في كثير من معاني القرآن. وأظهر من هذين النموذجين في الأندلس بقي بن مخلد وابن حزم الظاهري[4].

ثالثاً: لا يؤخذ بقول موسى بن الطائف وروايته أو خبره لأسباب؛ منها أن بينه وبين أبي القاسم الأفليلي خصومة أدبية نقدية، تمس شكل الشعر عنده فضلاً عن مضمونه، كما يدل قوله:

يا مبصراً عميت نواظر فهمه ... عن كنه عرضي في البديع وطولي
... ولئن ثلبت الشعر وهو أباطل ... فلقد ثلبت حقائق التنزيل
... وتظن أنك من فنوني موسر ... وكثير شأنك لا يفي بقليل

وأن موسى بن الطائف الشاعر المشهور في الدولة العامرية يمثل في

(١) التربية الإسلامية في الأندلس ص ١١٣.
(٢) بغية الملتمس ١/١٩٩ ترجمة رقم ٤٨٥.
(٣) الصلة ١/٦٣.
(٤) انظر التربية الإسلامية في الأندلس ١١٣ - ١١٥، والحضارة العربية في إسبانيا - ليفي بروفنسال ص ١٧٨ - ١٨٢.

هجائه رأي السلطة آنذاك، بل ينطق عنها بوقاً مردداً، يعزز اتجاه المنصور، ويبرر اتهامه، ويؤيد سجن أبي القاسم شفاء لما أصابه منه فيقول[1]:

سيسل روحك من خبيث قراره تأثير هذا الصارم المصقول
وأخص سيف الدولة الملك الرضي ليعيد عقد رباطك المحلول

وأن في شعر موسى بن الطائف ما يشين تصوره، ويثلم تدينه، ويسيء إلى سلوكه، والخبر في عرف الرواية لا يؤخذ عن مجرح؛ لأن الكذب جار عليه. يقول موسى وقد كتب بذلك إلى أحد العمال[2]:

لا تنسى من سحتك المكسوب واجعل نصيبك منه مثل نصيبي
فإذا اغترى بك في القيامة مغتر فبمثل ما تغرى به تغرى بي
وهي الذنوب وغاية في بخله من كان فينا باخلاً بذنوب

وغاية ما يمكن أن يقال، في هذه التهمة التي لحقت أبا القاسم الأفليلي إن جانباً من تبعتها مصدره الأفليلي، في حين أن جل وزرها يقع على المنصور ابن أبي عامر في نيله منه، ومساسه بتدينه، وانتقاصه بالتشهير من علمه وفضله.

ولعل أبا القاسم الأفليلي أعطى مسوغاً لهذه التهمة بتصور أو فهم لمسألة ما، تناولها عرضاً، أو طرحت عليه قصداً؛ لاختباره والإبانة عن اتجاهه الفكري، فأخطأ، أو حرّفت عن مقصوده، فلما روجع بها ركب رأسه على عادته، عناداً ومكابرة، إذ كان ذلك من صفاته «في الخطأ البين، إذا تقلده، أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه عنه صارف»، وأكد ذلك موسى بن الطائف في قوله هاجياً له:

تعتل في الأمر الصحيح معانداً أبداً وفهمك علة المعلول

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٣.
(٢) جذوة المقتبس ص ٣٣٨ ترجمة ٧٩٠.

فأوجد ذلك للمنصور مبرراً قوياً للتنكيل به، جزاءً وفاقاً لمحاولته النيل من تحالف السيادة بين المنصور وصاعد اللغوي.

ومن غير المتوقع أن يكون مكث أبي القاسم في سجن المطبق طويلاً، فليس من المعقول أن يظل صامتاً ابن العريف ت (٣٩٠ هـ) أحد أعضاء ديوان الندماء زمن المنصور[1]، دون أن يدفع هذه التهمة عن تلميذه، وليس غريباً أيضاً أن يتشفع له أبو عمر بن الحباب (ت ٤٠٠ هـ) إذ كان مقرباً من المنصور، حين عهد إليه بتأديب ولده عبد الملك المظفر.

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٩.

أبو القاسم الأفليلي والفتنة البربرية في قرطبة ٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ

كان دخول أبي القاسم الأفليلي سجن المُطْبق زمن الدولة العامرية نقطة تحول في موقفه من الحياة السياسية فيما يبدو، فقد فرض عليه ذلك تفكيراً جاداً بالانتماء السياسي بعد موت المنصور بن أبي عامر عام ٣٩٢ هـ.

وانتظر أبو القاسم الأفليلي سبع سنوات عجافاً، انتهت بها الحجابة العامرية، وأطلت فيها الفتنة البربرية، وقد أعلن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر (الذي عرفه التاريخ باسم شنجول) نفسه وريثاً شرعياً للخلافة الأموية، ووليّاً لعهد خلافة هشام بن الحكم.

وعلى الرغم من أن الأحداث تتابعت بعد ذلك سريعة متشابكة بصورة مذهلة، إلا أنه يمكن تمييز أحداث هذه الفتنة وتوزيعها في مراحل ثلاث[1]:

المرحلة الأولى: منازعات بني أمية على الخلافة ما بين ٣٩٩ ـ ٤٠٧ هـ.
المرحلة الثانية: العهد الحمودي (٤٠٧ ـ ٤١٣ هـ).
المرحلة الثالثة: الانحدار نحو الكارثة من ٤١٣ ـ ٤٢٢ هـ.

ولا نجد لأبي القاسم الأفليلي ذكراً في المرحلة الأولى، لكنه لم يغادر قرطبة، كما غادرها كثير من رجال الدولة العامرية والدولة المروانية، ومن كانوا على صلات طيبة بهم مثل ابن حزم وابن شهيد من أعلام الحركة الأدبية آنذاك.

(١) ديوان ابن شهيد يعقوب زكي ص ١٩.

ووجد أبو القاسم الأفليلي ضالته الأمنية حين أخذ آل حمود زمام الأمر في قرطبة، فتقرب منهم، وحظي بالمكانة والجاه بجوارهم، يقول ابن حيان: «وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة، ومضى الناس من حائن وظاعن، فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه»[1].

وكان جعفر بن محمد بن فتح عاملاً مساعداً في تقريب أبي القاسم إلى آل حمود، خاصة أن ابن فتحْ ينتسب إلى بني هاشم، فتقرب إلى يحيى بن علي المعتلي، وقرب إليه صديقه أبا القاسم الأفليلي، ورفع قدره في حضرته[2].

وما كان أبو القاسم لينكر هذا الفضل الذي غدا آمناً في ظله، رفيع القدر في حضرته، فقابل ذلك ثناءً وشكراً، فانعطف إلى مدح آل حمود، وقد نقل ابن سعيد في المغرب عن الحجاري بيتين لأبي القاسم الأفليلي في مدح يحيى بن حمود المتسمي بالخلافة في قرطبة عام (٤١٢ ـ ٤١٣ هـ) وهما[3]:

أنت خير الناس كلهم يابن من ما مثله بشر
فإذا ما لحت بينهم قيل هذا البدو والحضر

وأبو القاسم الأفليلي وهو يصل نسب يحيى بن حمود بآل البيت أو برسول الله ﷺ في قوله «يابن من ما مثله بشر» إنما يحقق له ما جهر به من آراء شيعيّة، وما أعلنه من أنه الممثل لها[4].

ولا يزيد هذا القول عن كونه مدحاً وتزلفاً، فرضه القرب من السلطان والثناء عليه بما يرد إليه بعض فضله، في وقت كان الإحساس بالأمن مطلباً عزيز المنال، ولا نستطيع والحالة هذه أن نحمِّل هذا المدح بعداً عقائدياً أو

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.
(٢) رسالة التوابع والزوابع بطرس البستاني ص ٣٠.
(٣) المغرب في حلى أهل المغرب جـ ١ / ٧٣ على أن يحيى بن حمود حكم أيضاً للمرة الثانية ٤١٦ ـ ٤١٧.
(٤) الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٦٩.

فكرياً مذهبياً، على الرغم من أن هذه الفترة أنتجت أدباً شيعياً في الأندلس، احتج فيه بعض الشعراء مثل ابن دراج القسطلي وأبي بكر بن ماء السماء، وابن الحناط، وابن مقانا الأشبوني لإمامة الحموديين[1].

وهذه المكانة التي حققها أبو القاسم الأفليلي لواذاً ببني حمود، حملت بعض الباحثين على اتخاذها سبباً في سوء المعاملة التي لقيها ابن شهيد أيام العلويين (بني حمود) وانتهت به إلى السجن؛ بدعوى أن ابن شهيد ذكر أبا القاسم الأفليلي واحداً من خصومه في رسالة التوابع والزوابع، ثم صار صديقاً له[2].

وهذه دعوى قائمة على تخمين، يصرفها صريح السبب الذي أفضى به ابن شهيد نفسه في رسالته إذ يقول: «وهل كان يضرّ أنف الناقة، أو ينقص من علمه، أو يفل من شفرة فهمه، أن يصبر لي على زلة تمرّ به في شعر أو خطبة، فلا يهتف بها بين تلاميذه، ويجعلها طرمذة من طراميذه، فقال: إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم في الندرة، فقال: إنها المرة بعد المرّة»[3].

فالخصومة بين ابن شهيد وابن الأفليلي أساسها اختلاف الرؤية النقدية بين إبداع الأديب الذي لا يريد أن يحد من انطلاقه بعض مجاوزات اللغة وفنية الأدوات، وبين تمسك اللغوي وانضباطه بصرامة القاعدة وقسوة تطبيق مفرداتها.

حقاً أن ابن شهيد عدّ جعفر بن محمد بن فتح ممن عملوا على تكدير صفو الود بينه وبين أبي القاسم الأفليلي، إذ يقول مشيراً إليه: «فبحثت عمن طرأ عليك من الأنذال، وحلّ بساحتك من الأعلاج، فقيل لي: ابن فتح،

---

(١) أنظر التشيع في الأندلس د. محمود مكي صحيفة معهد الدراسات الإسلامية عدد ١ ـ ٢ سنة ١٩٥٤ ص ١٣٩ وما بعدها، وتيارات النقد الأدبي في الأندلس ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) ديوان ابن شهيد ص ٢٨، ٣٠.

(٣) رسالة التوابع والزوابع ص ١٣١.

فأنعمت البحث، وأعملت لطائف الكشف، حتى صحّ عندي أنه كدر صفوك عليّ، وغير شربك لديّ، فقلت: من ها هنا أتينا، ومن هذه القوس اللئيمة رمينا، وقصصي مع هذا العلج طويل..»[1].

ولا نستطيع أن نعدّ أبا القاسم الأفليلي سبباً في نكبة ابن شهيد زمن يحيى بن حمود؛ لأن ابن شهيد كان صديقاً ليحيى، ومقرباً منه، شأنه في ذلك شأن أبي القاسم الأفليلي، ولعل ابن شهيد أسيئت معاملته فسجن زمن القاسم بن حمود الذي حكم (٤٠٨ ـ ٤١٢ هـ)، وقد أشار ابن شهيد إلى حسن رعاية آل حمود له والمتمثلة بيحي بن علي، يقول وهو بصدد الحديث عن جعفر بن محمد بن فتح: «ولولا أنه منتسب إلى آل هاشم، إلى عصابة أقلني كرمهم، وأظلتني نعمهم، ومسند، على العلات، من أبي جعفر[2]، من وزير كان لي وزراً، رقرق ترابي، وأخصب به جناني، لأدرت بداره دائرة السوء، وسريت إليها في لّمة من صعاليك الأحرار، وصميم الرجال، فأحرقت نازلها، وجعلت عاليها سافلها»[3].

وإذا كان حكم آل حمود حقق لأبي القاسم أمناً ووجاهة، فقد حقق له عودة الحكم إلى بني أمية سلطة ورئاسة؛ وذلك حين استكتبه عبد الرحمن المستكفي عام ٤١٤ هـ وكان له من العمر ثنتان وستون سنة، فولي بذلك الوزارة له، ولكن مقامه في هذا المنصب لم يدم طويلاً، حين «وقع كلامه جانباً من البلاغة، لأن كان على طريقة المعلمين المتكلفين، فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين، فزهد فيه»[4].

ومباينة رسائله للطبع الذي كانت تجري فيه الرسائل الديوانية آنذاك،

---

(١) رسالة التوابع والزوابع ص ٣٠.

(٢) هو أبو جعفر ابن اللمائي كان وزيراً كاتباً لعلي بن حمود.

(٣) رسالة التوابع والزوابع ص ٣٠.

(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.

لم يكن ليأتي على منزلته العلمية في قرطبة، فظل مقيماً على التعليم فيها، متصدراً بالرواية والفهم، باذّاً أهل زمانه، يُقْرِئ علم الأدب، ويُقْرَأ عليه، ويُختلف فيه إليه، وعرف بنو جهور (٤٢٢ ـ ٤٦١ هـ) لأبي القاسم مكانته العلمية، خاصة أبا الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور، ولعله ممن تأدب على يديه، فظل وفياً له حين ولي قرطبة بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٥ هـ، وقد صلّى على أبي القاسم عند وفاته سنة إحدى وأربعين وأربعمائة[١].

ويستفاد من صدى الأحداث السابقة في حياة أبي القاسم الأفليلي أنه لم يفارق قرطبة مع ما أصابها من المحن والتدمير والقتل، ولم يلحق به أذى التشريد أو السجن مما كان يلحق بمن عرف بميل سياسي لجهة دون أخرى، أو بصداقة لولي أمر دون غيره، على الرغم من اتصاله بالحموديين والأمويين (المستكفي) والجهوريين، وقد لا نجد لذلك تفسيراً إلا القول بأن أبا القاسم الأفليلي ظل في صلاته بهؤلاء محافظاً على توازنه السياسي ملتزماً باتجاهه العلمي والأدبي، شأنه في ذلك شأن بعض من سلم من هذه الفتنة كابن حيان[٢] (٣٧٧ ـ ٤٦٩) وأبي بكر حمام بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أكدر الذي قال عنه ابن حزم: «لا أدري أحداً سلم من الفتنة مع طول مدته فيها، فما شارك قط فيها بمحضر، ولا بيد، ولا بلسان، مع ذكائه وحزمه، وقيامه بكل ما يتولى حسن الخط»[٣].

ولا يقال إن وزارة أبي القاسم للمستكفي كانت كافية للعصف به بعيداً في غياهب السجن أو في العسف في البلاد بغير زاد، لأن المناصب في هذه الفترة كانت هينة فاقدة المعنى، فقد يطلق اسم الوظيفة العالية (الوزير أو صاحب الشرطة) دون أن يكون له دلالة حقيقية، أو فاعلية سلطوية، «إذ كانت إضافة اللقب على نحو تشريفي فخري قد أصبح تقليداً جارياً منذ أيام

(١) الصلة ١/٩٣ وبغية الوعاة ١/١٨٤.

(٢) انظر دراسة الدكتور محمود مكي في التقديم للمقتبس ص ٢٨.

(٣) الصلة ١/١٥٥ ترجمة ٣٥٠.

الحكم المستنصر واستمر طوال الدولة العامرية، ولا نستبعد أن يكون قد بقي في ظل حكومة الجهاورة»[1].

تلاميذه

ويكاد الدارس لحياة أبي القاسم الأفليلي يذهب إلى القول بأن الفترة ما بين (٤٢١ ـ ٤٤١ هـ) هي أخصب مراحل عطائه العلمي، وذلك بالنظر إلى انقطاعه عن السعي إلى الوظائف السلطانية، وتفرغه لشداة علمه من تلامذته، الذين تنبىء أزمانهم وفترات طلبهم عن ذلك، فضلاً عما رووه عنه من كتب.

ومن تلامذته الذين تميزوا بالنباهة والذكر، أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله التميمي الطبني (٣٩٦ ـ ٤٥٦ هـ)، وأبو مروان عبد الملك بن سراج (٤٠٠ ـ ٤٨٩ هـ)، وأبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، المعروف بالأعلم الشنتمري (٤١٠ ـ ٤٧٦)، والعلاء بن عبد الوهاب بن أحمد ابن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم بن غالب أبو الخطاب (٤٢١ ـ ٤٥٤ هـ)، وأحمد بن عبدالله التميمي المعروف بابن طالب (ت ٤٦٧ هـ) وعبدالله بن أحمد المعروف بالنّباهي.

ومن هؤلاء من أخذ عن أبي القاسم قراءة إو إجازة فحدث عنه في الأندلس، ومنهم من رحل إلى المشرق فحدث عنه بين علمائه ورواته، شيخاً مميزاً في علمه وضبطه.

فأبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني إمام في اللغة، شاعر، شعره على طريقة العرب، له رواية وسماع في الأندلس، رحل إلى المشرق غير مرة على كبر، وحدث بالمشرق عن إبراهيم بن زكريا الأفليلي بكتاب فعلت وأفعلت لأبي إسحاق الزجاج[2].

(١) الدراسة المقدم بها للمقتبس د / محمود مكي ٣٦.

(٢) انظر جذوة المقتبس ص ٢٨٤، وفهرسة ابن خير ٣٥٢.

وأبو مروان عبد الملك بن سراج إمام اللغة في الأندلس غير مدافع، وصفه الحجاري بأصمعي الأندلس، كان واسع المعرفة، حافل الرواية، عالماً بالتفاسير ومعاني القرآن والحديث، أحفظ الناس للسان العرب، فاق غيره بدقته وصدقه فيما يحمله[١]. روى عن أبي القاسم الأفليلي كتاب ابن العريف معاني الحروف وأقسامها، وقرأ عليه كتاب الكامل للمبرد[٢]، وكتاب شرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام[٣]، وكتاب شرح غريب الحديث لابن قتيبة[٤]، وكتاب إصلاح الغلط الواقع في غريب الحديث لأبي عبيد تأليف ابن قتيبة[٥]. وكتاب معاني القرآن للزجاج[٦]، وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى[٧]، وكتاب النوادر للقالي إجازة[٨]، وكتاب البيان والتبيين[٩]، والغريب المصنف[١٠]، وكتاب الألفاظ لابن السكيت[١١]، وكتاب الميسر لابن قتيبة[١٢]. وكتاب نوادر أبي زياد الكلابي[١٣]، وديوان الأشعار المفضليات[١٤]، وشعر ذي الرّمة[١٥]، وشعر أعشى بكر[١٦]، وشعر أبي

(١) انظر الصلة ١/٣٦٤ والمغرب ١/١١٥.
(٢) فهرسة ابن خير ٣٢٠.
(٣) فهرسة ابن خير ١٨٦.
(٤) فهرسة ابن خير ١٨٧.
(٥) فهرسة ابن خير ١٨٩.
(٦) فهرسة ابن خير ٦٤.
(٧) فهرسة ابن خير ٦٠.
(٨) فهرسة ابن خير ٣٢٣.
(٩) فهرسة ابن خير ٣٢٦.
(١٠) فهرسة ابن خير ٣٢٧.
(١١) فهرسة ابن خير ٣٢٩.
(١٢) فهرسة ابن خير ٣٧٨.
(١٣) فهرسة ابن خير ٣٨٠.
(١٤) فهرسة ابن خير ٣٩٠.
(١٥) فهرسة ابن خير ٣٩١.
(١٦) فهرسة ابن خير ٣٩٢.

تمام[1]، وأدب الكتاب لابن قتيبة[2]، وفائت الفصيح لأبي عمر المطرز[3]، وكتاب الأمثال لأبي عبيد[4]، وكتاب أبنية سيبويه للزبيدي[5]، ولحن العامة للزبيدي أيضاً[6]، ونوادر ابن الأعرابي[7]، وخلق الإنسان لثابت بن أبي ثابت[8].

والأعلم الشنتمري كان عالماً باللغات والعربية ومعاني الأشعار، حافظاً لجميعها، كثير العناية بها، حسن الضبط لها، مشهوراً بمعرفتها وإتقانها، أخذ الناس عنه كثيراً، وكانت الرحلة في وقته إليه، رحل إلى قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وأقام بها وأخذ عن أبي القاسم الأفليلي[9]. إذ حدث عنه بكتاب سيبويه[10]، وقرأ عليه كتاب الكامل[11]، وسمع كتاب النوادر بقراءة غيره له[12]، وقرأ الأعلم عليه كتاب الغريب المصنف، وكتاب الألفاظ لابن السكيت إجازة عنه[13]. وحدث الأعلم بكتاب اختيار الفصيح لثعلب سماعاً على الأفليلي[14] وروى أبنية كتاب سيبويه وكتاب لحن العامة[15] وكلاهما للزبيدي، وشعر أبي تمام[16]، وشعر أبي الطيب المتنبي[17].

ومن تلامذة أبي القاسم الأفليلي أبو تميم العز بن محمد بن أبي موسى بن بقنه، وهو عدوي مغربي الأصل، استوطن قرطبة، وكان حافظاً للغة، ذاكراً للآداب، مبرزاً فيها، توفي سنة ٤٨٨ هـ، وقد أخذ عن أبي القاسم الأفليلي

(١) فهرسة ابن خير ٤٠٢.
(٢) فهرسة ابن خير ٣٣٤.
(٣) فهرسة ابن خير ٣٣٨.
(٤) فهرسة ابن خير ٣٣٩.
(٥) فهرسة ابن خير ٣٤٥.
(٦) فهرسة ابن خير ٣٤٦.
(٧) فهرسة ابن خير ٣٧٢.
(٨) فهرسة ابن خير ٣٦٤.
(٩) الصلة لابن بشكوال ٦٨١/٢.
(١٠) فهرسة ابن خير ٣٠٥.
(١١) فهرسة ابن خير ٣٢١.
(١٢) فهرسة ابن خير ٣٢٤.
(١٣) فهرسة ابن خير ٣٣٠.
(١٤) فهرسة ابن خير ٣٣٨.
(١٥) فهرسة ابن خير ٣٤٦.
(١٦) فهرسة ابن خير ٤٠٢.
(١٧) فهرسة ابن خير ٤٠٣.

فأكثر[1]، ومما أخذه عنه الكامل للمبرد قراءة عليه[2]. وحدث بشرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام إجازة عنه[3]، وقرأ عليه كتاب النوادر للقالي[4]، والبيان والتبيين للجاحظ[5]، وخلق الإنسان لثابت[6]، وحدث عنه بشعر أبي تمام[7] وبشعر أبي الطيب المتنبي[8].

وكان أبو العلاء عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم بن غالب، أبو الخطاب، من أهل العلم والأدب والذكاء، والهمة العالية في طلب العلم، كتب في الأندلس فأكثر، ثم رحل إلى المشرق، فاحتفل بالجمع والرواية، ودخل بغداد فحدث عن أبي القاسم الأفليلي[9].

وممن لازم الأفليلي وروى عنه فأكثر ابن طالب أحمد بن عبدالله التميمي. فأضحى في قرطبة ممن يختلف إليه، وتقرأ كتب الأدب عليه، وكان ثقة ديناً، ورعاً كثير الصلاة متواضعاً[10].

وممن روى عن الأفليلي أيضاً أبو بكر خازم بن محمد بن خازم المخزومي من أهل قرطبة (٤١٠ - ٤٩٦ هـ)، الذي كان وافر الأدب، وله تصرف في اللغة وقول الشعر، إلا أن الأدب كان الأغلب عليه، وعلى الرغم من أن بعض العلماء كانوا يضعفونه في الرواية مثل أبي عبدالله بن محمد بن فرج الفقيه،

---

(١) الذيل والتكملة لكتاب الصلة والموصول السفر الخامس القسم الأول ص ١٤٢ وقد أورده باسم العز بن أحمد بن هارون.
(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٢١.
(٣) فهرسة ابن خير ص ١٨٦.
(٤) فهرسة ابن خير ص ٣٢٣.
(٥) فهرسة ابن خير ص ٣٢٤.
(٦) فهرسة ابن خير ص ٣٦٤.
(٧) فهرسة ابن خير ص ٤٠٢.
(٨) فهرسة ابن خير ص ٤٠٣.
(٩) جذوة المقتبس ص ٧٢٥ ترجمة رقم ٣١٧.
(١٠) بغية الملتمس ترجمة رقم ٧٣٣ والصلة ١/٦٣ - ٦٤.

وأبي مروان بن سراج، إلا أن الناس كانوا يجتمعون إليه ويسمعون منه [1].

أما ابن النبّاهي أبو محمد عبدالله بن أحمد من أهل مالقة، فقد ارتحل إلى قرطبة ولازم أبا القاسم الأفليلي، فأخذ عنه كثيراً، وكان عالماً بالآداب والصفات والأشعار، معجباً بشيخه الأفليلي، مخلصاً له، إذ انبرى للرد على ابن حزم الظاهري فيما تعقب به ابن الأفليلي في شرحه شعر المتنبي [2].

وليس بخاف ما في عدد هؤلاء التلاميذ وتميّز قدراتهم في اللغة والأدب، ورفعة منزلتهم في أزمانهم، من شاهد ثبت على مكانة شيخهم أبي القاسم، إذ غدا الناس يروون عنهم ما رووا عن شيخهم في غرب العالم الإسلامي وشرقه، خاصة شعر أبي تمام وأبي الطيب.

(١) الصلة ١/١٨٠ ترجمة رقم ٤١٢.

(٢) الصلة ١/٣٨.

أبو القاسم الأفليلي والحياة الأدبية في قرطبة

وكما شهد أبو القاسم الأفليلي بعمره المديد دولة الإسلام في الأندلس تتقلب بها الأحوال، وتعبث بها الأهواء، فهوت بها إلى هاوية الانحدار، فقد وقف على الحركة الشعرية في قرطبة موزعة بين طريقة العرب التي حاول القالي بدخوله الأندلس إعادة صياغة الذوق الأدبي على هدى منها، ومذهب المحدثين الذي مكن له في الأندلس العائدون إليه من الشرق أو المرتحلون إليه منه، فضلاً عن أحوال الأندلس الاجتماعية والحضارية.

وعاصر أبو القاسم الأفليلي من شعراء الاتجاهين عدداً كبيراً عجت بهم جنبات قرطبة، فمن شعراء طريقة العرب أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني، وأبو جعفر اللمائي. ومن شعراء المحدثين يوسف بن هارون الرمادي، وعبادة ابن ماء السماء ت ٤٢١ هـ، وابن شهيد وابن حزم، وابن زيدون... الخ.

وصلة أبي القاسم بهؤلاء الشعراء كانت عن طريق الحياة العامة في قرطبة بمجالسها ومنتدياتها وما يدور فيها من أدب وفن، أو عن طريق اتصال هؤلاء الشعراء بمراكز الحكم التي تعاورت على قرطبة وكان للأفليلي فيها الجاه أو المركز أو التقدير.

ولعل أبا القاسم الأفليلي رغب في أن يثمر هذه الصلات العامة والخاصة في كتاب أدبي، فشرع في جمع مادته، فصار «عنده من أشعار أهل بلده قطعة صالحة».

ويغلب على الظن أن هذه الأشعار لو قدّر لها أن ترى النور، لكانت مختارات شعرية أندلسية رائعة تمثل ذوق أبي القاسم وعقله واتجاهه، خاصة أنه «كان أشد الناس انتقاداً للكلام ومعرفة برائعه»[1].

وتحديد ميل أبي القاسم الأدبي، أو الوقوف على اتجاهه الفني، لا نطلبه في شعره الذي وصفه الحجاري بأنه «بارد النظم»، ولا فيما كان يتكلم في معانيه من شعر الجاهليين أو شعر المفضليات أو شعر ذي الرّمة مما رواه ويشاكل بضاعته اللغوية، ويكشف عن طريقه الفحول في استخدام الأداة واللغة في عصور الاحتجاج اللغوي، ولكننا ندركه في اهتمامه بشعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي، إذ «كان عظيم السلطان عليهما، شديد العناية بهما»[2] وكلاهما لا يفارق طريقة العرب في أخذه بمذهب المحدثين، وهي المنهج الذي ميزوه بقولهم «لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب» وإن لم يكن أبو تمام واضحاً في ذلك وضوح المتنبي.

ويأتلف أبو القاسم الأفليلي في ميله هذا مع الذوق الأدبي العام في قرطبة خاصة والأندلس عامة في القرن الخامس الهجري، الذي أشار ابن بسام إليه في قوله: «على أن أكثر أهل وقتنا وجمهور شعراء عصرنا إليها يذهبون»[3].

ولم يكن هذا الميل الأدبي لدى أبي القاسم الأفليلي لينازع في طغيان ما استقر في طبيعته واتجاهه اللغوي، الذي ما فتىء ظاهراً على ممارساته الأدبية والنقدية، مما ترك أثراً سيئاً على علاقته بمعاصريه من الأدباء، ويمكن أن نلمس ذلك في الخصومة التي اشتدت بينه وبين ابن شهيد، فغدا كثير الوقوع فيه، والتندر به، ويقول في ذلك: «فكل علم يزعمه قبض يده، وهو أشدهم ضنانة بألا يكون في الأندلس محسن سواه، ولا مجيد حاشاه، وكان الرأي

(١) الصلة ٩٣/١ ترجمة رقم ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الذخيرة القسم الثاني المخطوط ص ٤٩٤.

عندي له، أن يسكن أرض جلّيقيّة، أو قطراً أبعد عن الإسلام، حتى لا يسمع فيه لخطيب ذكراً، ولا يُحسُّ لشاعر ركزاً، فينعم هناك فرداً، وليست شيبته شيبة أديب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر»[1].

واتخذ ابن شهيد أبا القاسم الأفليلي خصماً يمثل جماعة المعلمين أو طبقة المؤدبين، الذين كان يرى فيهم جانباً من أزمة الإبداع الأدبي في الأندلس؛ لأن بضاعتهم الحفظ والنقل، دون الاجتهاد في توجيه الأدب وتعزيز بوادره وتجديده، يقول ابن شهيد: «وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وضبط كلمات من اللغة، يحنون على أكباد غليظة، وقلوب كقلوب البعران، ويرجعون إلى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها في شعاع الرّقة، ولا مدّب لها في أنوار البيان»[2].

ويحرس ابن شهيد على أن يظل صوته في هذه الخصومة الأعلى والأقوى، فغيب عنا حقيقة نقد أبي القاسم في نماذجه التطبيقيّة، إلا أنه أقر بموضوعية هذا النقد وإصابته فيما تناول من شعره، ولذلك كانت مرارة الإحساس في ردّه على من طلب منه الصبر على ما صدر من ابن الأفليلي لمكانته وعلمه، إذ يقول: «وهل كان يضر أنف الناقة، أو ينقص من علمه، أو يفل من شفرة فهمه، أن يصبر لي على زلة تمر به في شعر أو خطبة، فلا يهتف بها بين تلاميذه، ويجعلها طرمذة من طراميذه»[3].

وأياً كان الرأي في أسباب هذه الخصومة ووجهها من الحق[4]. فإن بعض أبعاد شخصيّة أبي القاسم الأفليلي الجسميّة تبدت من خلال وصف ابن شهيد له في رسائله التي تندر به فيها.

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٤١.
(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٥ ط القاهرة.
(٣) رسالة التوابع والزوابع ١٣١.
(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابي تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٩٣ ـ ٩٨.

فأبو القاسم متوسط الطول، ربعة، ذو أنف كبير ظاهر الكبر، أشمط الشعر، في مشيته ظلع أو ما يشبه العرج، جاء ذلك في قول ابن شهيد: «وأما أبو القاسم الأفليلي، فمكانه من نفسي مكين، وحبه بفؤادي دخيل، على أنه حامل علي، ومنتسب إليّ، فصاحا: يا أنف الناقة بن معمر، من سكان خيبر! فقام إليهما جني أشمط ربعة، وارم الأنف، يتظالع في مشيه، كاسراً لطرفه، وزاوياً لأنفه[1]».

ومع الاحتراس بأن هذه الصفات توكأ عليها ابن شهيد لينتقم بها من خصمه، بالتهكم به، وتقبيح صورته، إلا أن ابن شهيد ساواه بنفسه وبالجاحظ في علّة شكلية قعدت بهم جميعاً عن الوصول إلى المناصب الكتابية، فيقول: «إن إفراط جحوظ عينيه قعد به عنها، كما قصّر بي أنا فيها ثقل سمعي، وبأبي القاسم ورم أنفه، إذ لا بد للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسه، وأنف نقي لا تذم أنفاسه عند مقاربته»[2].

وفي استكمال جوانب شخصية أبي القاسم الأفليلي تجدر الإشارة إلى ما سبق ذكره من أنه كان معتداً بنفسه، شديد التعصب لرأيه، جدلاً. يقول ابن حيان عنه: «وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكباً رأسه في الخطأ البين إذا تقلده، أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه»[3].

ولأبي القاسم صفات حميدة، فقد كان كما يقول ابن بشكوال: «صادق اللهجة، حسن الغيب، صافي الضمير، حسن المحاضرة، مكرماً لجليسه»[4].

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٧٤.
(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٤٣.
(٣) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢٨١.
(٤) الصلة ١/٩٣.

آثاره:

اجتهد أبو القاسم الأفليلي في تحقيق مكانة علمية لنفسه، شهد برفعتها وتفردها معاصروه، يقول ابن حيان: «بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة، في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية والمشاركة في بعض معانيها»[1] وقال عنه الحميدي: «وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لها»[2].

لكن هذه المكانة التي عهادها معرفة لغوية وأدبية ونقدية وبلاغية لم تثمر في تصانيف لغوية أو تآليف أدبية، فظلم أبو القاسم الأفليلي نفسه وعلمه قبل أن يظلمه ابن شهيد حين عدّه مقصراً، فأغلظ له القول في تناوله له، إذ يقول: «ومن دليل تقصير عصابة المعلمين أنهم لا يقدمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفاً، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً، وإنما تفسو به أنفاسهم فسواً بين تلاميذهم، ولا يقدر أن يزيد في النفخ ضراطاً يسمع، فهم في ذلك أمثال الجنادب وقرناء الخنافس... ولا تروى لهم نادرة، ولا تؤثر عنهم شاردة»[3].

وكل ما عرف لأبي القاسم من آثار ما يلي:

١ ـ شرح معاني شعر المتنبي

قال ابن حيان: «وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي»[4] ويدفع كلام ابن حيان هذا ما جاء عن ابن بشكوال في قوله: «كان عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي وأبي الطيب المتنبي، كثير العناية بهما، على عنايته الوكيدة لسائر كتبه»[5].

---

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.
(٢) جذوة المقتبس ص ٣٣٤.
(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٤٤.
(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.
(٥) الصلة ١/٩٣.

٢ ـ مختارات شعرية لأهل الأندلس

قال ابن بشكوال: «وكان عنده من أشعار أهل بلده قطعة صالحة، وكان أشد الناس انتقاداً للكلام ومعرفة برائقه»[١]، فأبو القاسم يملك أدوات الانتخاب الفني والنقد الأدبي.

ويغلب على الظن أن هذا الاختيار متأثر بحماسة أبي تمام ومنحاه فيها، وقد يكون من توجيه الأفليلي وتأثيره إقبال تلميذه الأعلم الشنتمري على حماسة أبي تمام والعناية بها ترتيباً واختياراً وشرحاً، فعدّ بذلك صاحب حماسة أيضاً.

٣ ـ (حواشي) كتاب الغريب المصنف وكتاب الألفاظ وغيرهما.

قال ابن بشكوال: «وعنى بكتب جمة كالغريب المصنف وغيرهما».

وإخال عمل الأفليلي في هذين الكتابين وغيرهما من كتب اللغة مقتصراً على عمل المُحَشِّي في العادة، من شرح وتفسير وتعليق، بما يجدد أثر الكتاب، وقد شهر الأندلسيون في تناول كتب المشارقة نذكر من ذلك طرر الوقشي وابن السيد البطليوسي على كتاب الكامل.

٤ ـ ديوان أبي تمام صنعة ورواية

إذ جمع أبو القاسم الأفليلي في إخراج هذا الديوان بين رواية القالي والصولي، وقد ظل هذا الديوان أثيراً في التداول في الأندلس والمغرب عن طريق تلاميذه الذين سبقت الإشارة إلى روايتهم لشعر أبي تمام عنه، مثل أبي مروان عبد الملك بن سراج، والعز بن بقنة والأعلم الشنتمري وأبي بكر خازم ابن محمد بن خازم القرطبي يقول أبو القاسم الأفليلي واصفاً صنعته لهذا الديوان في نهاية إحدى مخطوطاته: «كمل في هذا الشعر جميع ما تضمنته القراطيس التي اجتلبها أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي من شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وذكر أبو علي أنها بخط يد أبي تمام واستقرت

(١) الصلة ١/٩٣.

عند صاحب الشرطة أبي القاسم بن سيد، وصارت إليّ من جهته؛ وكذلك كمل فيه جميع ما قيده أبو علي من شعر أبي تمام في سفر الكاغد الذي قرأ فيه على أبي محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه، وأقرأه ذلك رواية عن علي بن مهدي الكسروي عن أبي تمام حبيب بن أوس، واستقر السفر المذكور عند الحاجب جعفر بن عثمان، وصار إليّ من جهته إلى صاحب الشرطة الكاتب أبي حفص بن مضاء، واستعرته من ابنه، وأضفت إلى ذلك ما ألفيته زائداً في الكتب التي استقرت بخط أبي علي وروايته في خزانة المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر، وأخرج إلي الكتب المذكورة أبو القاسم الحسين بن الوليد المعروف بابن العريف، رحم الله جميع المذكورين وعفا عنهم، وأضفت إلى ما نقلته من الأصول المذكورة ما ألفيته زائداً في رواية محمد بن يحيى الصولي مما أشبه ما تقدم في حسن الصناعة واختيار الألفاظ. والحمد لله على عونه وجميل تأييده كثيراً كما هو أهله، وصلى الله على محمد وسلم»[1].

٥ ـ شعره ورسائله

شعر أبي القاسم الأفليلي غلبته الصنعة والتعمل، فغدا نظماً فاتر العاطفة، بارد الوقع والأثر، قال الحجاري يصف أدبه: «كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلا قوله:

صحبت القطيع ونادمته وأصبحت في شربة ذا انقطاع
وأبصرت أنسي به وحده كأنس الرضيع بثدي الرضاع

قال: وهو القائل في يحيى بن حمّود من قصيدة يكفي منها ما يكفي من الترياق:

أنت خير الناس كلهم يابن من ما مثله بشر
فإذا ما لحت بينهم قيل هذا البدو والحضر

(١) مخطوط الخزانة الحسنية رقم ٥٨٤ نقلاً عن «أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة» د / محمد ابن شريفة ص ١٦ ـ ١٧.

قال: وأنشدتها لأحد الأدباء، فقال لي عندما سمع عجز الأول، ورأى ترادف الميمات: هذه عقد ذنب العقرب، فلما سمع الثاني، قال: سبحان من أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق»[1].

وهذا النص صريح الدلالة على شعر أبي القاسم الذاتي والغيري وقيمته، فلا أثر للموهبة في هذا الشعر، ولا ملمح فيه للطبع أو الفن ذي الشفافية الذي يكشف عن رؤية الشاعر ومعاناته للتجربة، بل إنه نتاج رصف المعاني والمباني من غير انفعال في وزن شعري. وبذلك يمكن توجيه كلام ابن حيان «وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه»[2].

ولعله ما قصد إليه ابن شهيد في هجومه على المعلمين وشعرهم لفقدانه البديهة والارتجال (الموهبة والطبع)، إذ يقول: «ومن علم من خلق هذه العصابة إذ لمحتنا أبصارهم، قابلونا بالملق، وهم منطوون على حسد وضيق، فإذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، تراهم إلينا مبصبصين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائفين...

وفي مجالس الملوك عند أنسها وراحتها، فإنه يقع فيها ويجري لديها ما لا ينفع له الاستعداد، ولا ينفذ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة فترى الجواد السابق إذ ذاك متشوفاً بأُذنه، باحثاً لكديد الإحسان بيده، طامح النظر، صهصلق الصهيل، وأهل الصنعة خرس، لا يسمع لهم جرس، ولا شيء عندهم غير حسو الكاس، وشم الآس، وتنفس الصعداء، قد اصفرت ألوانهم، وقلصت شفاههم، كأنهم من رجال عذرة»[3].

ولم يكن نثر أبي القاسم الأفليلي في رسائله الديوانية أحسن حالاً من

(١) المغرب في حلى أهل المغرب ١/٧٤.
(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٢.
(٣) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢١٠.

شعره، لأنه كان يصدر فيها عن طريقة المعلمين المتكلفين، ولم يجر في أساليب المطبوعين، ولذلك زهد المستكفي بالله فيه، حين وقع كلامه جانباً من البلاغة، ولذلك لم تر ورسائله، شأنها شأن أشعاره، إذ لم يكن فيها ما يغري أو يختار، يقول ابن شهيد معتمداً هذه القضيّة الفنيّة في هجومه على أبي القاسم: «ومن العجب في أمره، أن كل كاتب كتب للسلاطين عندنا، وكل شاعر مدحهم، رويت أشعاره ورسائله غير أبي القاسم وحده، على أنه إنما يجلس للتعليم على هذا المعنى، وربما عرّض بأن يؤخذ منه شيء من أشعاره ورسائله، ولا يجيبه تلميذ، والمحروم محروم، ولو أنه اشترى الزبيب لصبيان المساجد، وقشور الجوز لصبغ شفاه خراجيات الخانات...»[1].

وإذا كانت الحَيْطة تقضي ألا يؤخذ ابن شهيد حجة في الإثبات؛ لأنه خصم يبالغ في تكبير العيوب، ويتسقط الأخطاء، فلا يأبه بالمحاسن وإن تبدت، فإن موافقة بعض هذه الاتهامات لحال الأفليلي في أدبه الإنشائي (الشعر والرسائل) من جهة، واتساقها مع نظرات النقاد والرواة الثقات من جهة أخرى ـ تعطي إذا هذبت من السخرية والتهكم ـ نقداً ـ صائباً لهذا الجانب من آثاره.

على أنني قصرت الإصابة في هذا النقد على أدبه الإنشائي (الشعر والرسائل) دون نثره التأليفي الذي أضفى عليه قيمة أدبية فنيّة؛ بما أجرى فيه من لمسات العناية في انتقاء اللفظ، وصقل العبارة وتوقيعها بالسجع والإزدواج، وبيان ذلك في موضعه من الفصل الرابع في هذه الدراسة.

(١) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٤٢.